والحبل على الجرّار

لقد تحدثت قبل أسبوعين في مدونتي وبصورة مُقتضبة حول موضوع العنف المنتشر في مجتمعنا. لم يكن حديثي عن الموضوع مُختصرًا بمحض الصدفة. لقد تركت لنفسي الفرصة للتحدث عن الموضوع بتوسّع عندما تسنح لي الفرصة بالقيام بذلك.

الحقيقة أنني ترددت كثيرًا بالتحدّث عن موضوع العنف، رغم انتشار الحديث عن ذلك في كل المحافل الاجتماعية والسياسية في البلاد. الجميع يتحدث عن العنف، الجميع يستنكر ويشجّب ويُندد. الجميع يطالب الحكومة وأعضاء الكنيست العرب ورجال الإصلاح بقمع هذه الظاهرة المُنتشرة بكل مكان في مجتمعنا.

يعتقد الناس في مجتمعنا أنّ العنف نابع من انتشار عصابات الإجرام في قُرانا ومدننا العربية، نتيجة لغياب القانون والسّلطة. الجميع يُطالبون باجتثاث هذه الظاهرة بواسطة القضاء على عصابات الإجرام.

البعض يعتقد أنّ العنف يتمثل بالشّجارات العائلية التي تحدث بين فينة وأُخرى في مجتمعنا. والبعض الآخر يعتقد أنّ العنف المنتشر في المدارس نابع

من انعدام سلطة الأهل ومن القوانين الحديثة التي دخلت إلى تربيتنا لأبنائنا وبناتنا ممّا أضعف المدارس وقلّل من قيمة وقدر المعلّم.

أنا لا أقلّل من أهميّة الأمور المذكورة أعلاه، ولكننا ننسى الكثير من الأمور والمؤشرات التي تُشير إلى كوننا مجتمعًا عنيفًا.

هل العنف لدينا في الجينات منذ كنّا شعوبًا وقبائل؟ هل نحن شعب عنيف بطبيعته؟ هل من الممكن أن نهذّب أنفسنا وأن نتخلص من العنف؟

أذكر أننا لمّا كنّا طلابًا في المدرسة أحببنا خطبة الحجّاج بن يوسف الثقفي عندما قدم واليًا على أهل العراق وقال خطبته الشهيرة والتي رأى فيها "رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها". آه كم تفاعلنا معه وانتظرنا بفارغ الصبر أن ينهي خطبته وتبدأ الرؤوس بالتطاير. وكم استمتعنا بحب عنترة لعبلة وقوله: "ولقد ذكرتك والرماح نواهل منّي وبيض الهند تقطر من دمي".

خطابنا عنيف، حبّنا عنيف، كم قلنا للحبيب: "حبك نار" وما إلى ذلك من الغزل العنيف.

نحن عنيفون بطبيعتنا. نعم من الصعب أن نعترف بذلك صراحة. نحن عنيفون جدًا في الكثير من مناحي حياتنا. ما أحاول قوله أنّ العنف لا يقتصر على العصابات والإجرام والشّجارات وغيرها. أنت عنيف:

- إذا لم تقف وتلتزم بالدّور في البنك أو السوبر ماركت أو الصّيدلية وغيرها من الأماكن العامة فأنت عنيف. كذلك الأمر إذا تدافعت ولم تنتظر دورك للصّعود إلى الباص أو القطار فأنت عنيف أيضًا.

- إذا لم تلتزم كسائق سيارة، بقوانين السير والاشارات المرورية وإذا لم تعطِ حق المرور للمارّة عند خط المرور، فأنت بالتأكيد عنيف. وإذا لم تتصرف بأدب ولباقة في الشّارع، وإذا شتمت وصرخت فأنت عنيف. وإذا مررت بالضوء الأحمر، وإذا امتنعت عن الوقوف عند إشارة "قف" فأنت بالتأكيد عنيف.

- إذا لم تراعِ جارك في المناسبات والأفراح، فأطلقت مكبرات الصّوت بالأغاني والأهازيج، وضرب ابناؤك "الفتّيش والمفرقعات" خلال ساعات الليل والنهار. ولم تراعِ كبيرًا بالسّن أو رضيعًا، ولم تراعِ عاملًا عاد مُتعبًا من عمله ويرغب بالرّاحة. إذا لم تسمع نداءات أهل بلدك وأئمة المساجد المطالبين بعدم إطلاق هذه المفرقعات، أو لم تهتم بوجود "بيت عزاء" لشخص توفي في قريتك وحارتك وشارعك، فأنت بالتأكيد عنيف.

- إذا ظلمت أحد المستخدمين وتسلطت عليه، ومنعت عنه الرزق الحلال وعاملته باستبداد، فبالتأكيد تكون قد جمعت بين الظلم والعنف، فأصبحت ظالمًا وعنيفًا.

- إذا أحببت أحدهم يومًا، وفرّقت بينكم الأيام، فنسيت أو تناسيت الودّ والمحبة التي جمعتكما، وبدأت بالتشهير به وفضحه وإفشاء أدق التفاصيل فأعلم أنك أناني وعنيف. وإذا فرقت الأيام بينك وبين صديق لك، فأنكرت فضله وأفشيت سرَّه، ونسيت "الخبز والملح" الذي بينكما فاعلم أنك ناكرٌ للجميل وعنيف.

- إذا قمت بنشر خبر على الانترنت، وتعرّضت به إلى غيرك وحرَّضت ضده، وأذعت الشائعات المغرضة بين الناس فاعلم أنك فاسق وعنيف.

- إذا فرحت لفشل صديقك أو زميلك في العمل، ونسيت فضل الزمالة وشمتّ به فاعلم أنك عنيف.

- إذا قاطعت حديث الناس ومنعتهم من اكمال أقوالهم، وسخرت منهم ومن أقوالهم فاعلم أنك عنيف.

- إذا وضعت العوائق بالطّريق وضيّقت على الناس بسيارتك أو شاحنتك أو حافلتك فاعلم أنك تضع الأذى بالطّريق وأنك عنيف.

أعزائي، القائمة طويلة والطّريق أطول. أعرف أنني قد أطلت عليكم لذا دعوني أنهي كلامي بطرفة:

يُحكى أنّ سائحًا استأجر حمارًا من صاحبه وركب عليه برفقة صاحب الحمار. وعند الظهر نزل السائح ليتغدّى، وإذ لم يجد مكانًا ظليلًا، أراد أن يجلس في ظلّ الحمار،

فمنعه صاحب الحمار وقال: "أنا أجّرت الحمار، لكنني لم أؤجّر ظلّه، بل احتفظت به لنفسي". قال السائح: "لكن ظلّ الحمار من توابع الحمار ويحق لي أن أتمتع به".
واحتدم الجدال بين الرجلين وتطوّر إلى مشاحنة وشجار. فهرع عدد من رجال القرية وفصلوا بين السائح والرجل. وعندما علموا موضوع الخلاف وهو ظلّ الحمار "تنطح" أحدهم وقال: "أنا أقول أنّ ظلّ الحمار هو حق من حقوق مُستأجر الحمار".
فانبرى له رجل من الجانب الآخر وقال: "لا بل هو لصاحب الحمار". فأيّد بعض الحاضرين رأي الرجل الأول وتحمّس آخرون للرأي الثاني، وبدأ النقاش وحمي الجدال وما لبث أن تطوّر إلى مُشاتمة ومُدافشة واقتتال، بين رجال القرية. عندئذٍ ركب السائح على الحمار وانصرف مع الرجل وبقي أهل القرية مُنقسمين ومتقاتلين، حول "قضيّة ظلّ الحمار" إلى يومنا هذا.

هذا الذي صار... صار ظلّ الحمار قضيّة، والقضيّة صارت قضايا، والقضايا صار لها أعوان وأنصار، وشهداء وأبطال، وضحايا وخراب ودمار... والحبل على الجرّار.

دمتم بكل الخير

أ.أيمن جبارة